حاول المازنى أن يهبط بالموت الى أدنى مستوى كما يقال فى لغة العملات . وهناك شخصية مثيرة يسميها المازنى تسمية هزلية وأعنى بها الشيخ قفة .

والشيخ قفة كان عطارا وبقالا فى آن واحد . يحفظ القرآن ، ويجيد الكلام بالتركية وواحدة أو اثنتين من لغات الهند ، وأحسبه تعلم التركية من الأغوات الذين كانوا من سكان ذلك الحى . أما الهندية فقد تعلمها من الجنود الهنود الذين كان معسكرهم ـ فى أيام الحرب الكبرى ـ على مقربة من دكانه . وكانوا أعنى الهنود ، يختلفون إليه ، ويصغون إليه بالود ويستبضعون منه ما يحتاجون ، ولقد أثمرت محبتهم له اتهامه فى وقت من الأوقات بأنه يبث فيهم روح الفتنة والتمرد ، فألقت السلطة العسكرية عليه القبض ، وحبسته أياما بلا سؤال أو تحقيق . ثم دعاه إليه أحد الضباط وشرع يسأله بواسطة مترجم ، فقابله الشيخ قفة ، وتظاهر بالسذاجة .

وسأله الضابط هل تعرف الشيخ شاويش ؟

فقال الشيخ قفة أين دكانه ؟

فكرر الضابط سؤاله هل تعرف الشيخ شاويش ؟ قل لا أو نعم .

قال الشيخ قفة إن لى ثلاثين سنة وأنا أتجر بمواد العطارة ، وأعرف تجارها جميعا ، ولكنى لم أسمع بهذا التاجر . فأين دكانه ؟ خبرونى لعلى أذكره إن كنت ناسيا .

وكانت جلابيبه متقاربة الألوان حتى ليعذر من يتوهم أنها واحدة لاتتغير ، وإن لم تبد قط فى رأى العين إلا نظيفة . ولم يكن يحتذى إلا القبقاب ، أما رأسه فعار أبدا صيفا وشتاء . وكان له حمار صغير معروق يستخدمه فى طحن البن . وكان الشيخ قفة فى وقت فراغه يتسلى بتعليم الحمار النهيق . أى والله كان صاحبنا يفعل ذلك . ولم يكن أعجب من أمر الشيخ قفة إلا أمر حماره ، فقد كان ـ أعنى الحمار ـ يطيعه ، ويروح يمد عنقه ، ويثنى أذنيه إلى الوراء ، ويرفع عقيرته بالنهيق كلما دعاه الشيخ قفة إلى ذلك ، وأمره به . ولكن صاحبنا موسيقى حساس الأذن ، ولم يكن على مايظهر يرضيه نهيق حماره ، فكان يضربه ويصيح به :

ليس هكذا يا بهيم . اسمع « هاء..هاء » .

ويطلق نهقة قوية ، ثم يقول :